جَمْعُ الْأَمَانَاتِ الْمُقَدَّسَةِ

فِي

قَصْرِ طُوبْ قَابِي

جمع الآثار النبوية والأمانات المباركة في قصر قوب قابي

نقل المؤرخ العثماني سعد الدين أفندي عن أبيه حسن جان أن السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠ م) كان لا ينام أكثر الليالي بل يقضيها مع نديمه حسن جان بقراءة الكتب ومذاكرة القضايا العلمية. وفي إحدى الليالي استغرق حسن جان في نوم عميق فلم يستطع الحضور إلى منادمة السلطان. فلما برق الصباح وسطع الضوء مَثل بين يدي السلطان فقال له: "هات يا حسن جان، قُصّ علينا الرؤيا التي رأيتها". فتحيّر حسن جان ولم يفهم بادئ الأمر ما يقصده السلطان، وبعد برهة تبين أن صاحب الرؤيا ليس هو حسن جان هذا، بل كبير البوابين حسن آغا، وخلاصة الرؤيا هي كما يلي:

رأى حسن آغا في منامه أن باب القصر قد قرع في ساعة متأخرة من الليل. وعندما ذهب ليفتح الباب رأى جمعا كبيرا يتألف من رجال نورانيين مسلحين يرتدون أزياء عربية، يقفون أمام الباب وفي يد كل واحد منهم لواء، يتقدمهم أربعة رجال يحملون ألوية بيضاء كذلك، والشخص الذي قرع الباب يحمل اللواء السلطاني الأبيض. فتقدم لحسن آغا وقال له: "هؤلاء الذين تراهم أصحاب رسول الله ﷺ. فقد أرسلنا رسول الله ﷺ إلى هنا، وإنه يقرئ السلطان سليم السلام ويقول له "ليحضر فورا، فقد كلفناه بخدمة الحرمين الشريفين". ونحن الأربعة الذين تراهم: هذا أبو بكر الصديق، وهذا عمر الفاروق، وهذا عثمان ذو النورين وأنا علي بن أبي طالب، اذهب إلى سليم خان وأخبره بهذا الأمر".

عندما سمع السلطان سليم ما سمع احمرّ وجهه حياء، ودمعت عيناه سروراً، ونظر إلى حسن جان قائلا: "ألم تقل لك إننا لا نقوم بشيء حتى نؤمر به، وأجدادنا من أولياء الله المقربين الصالحين، ولكن وللأسف نحن عجزنا عن بلوغ ما بلغوا إليه من الفضل والصلاح، نستغفر الله العظيم ونسأله التوبة".

مدخل دائرة البردة الشريفة. في الوسط وفوق الباب تبدو كلمة التوحيد التي كتبها السلطان أحمد الثالث بخط يده. العبارة المكتوبة على يمين الباب على شكل ثغرات: "مالك الدنيا السلطان الأمجد"، أما العبارة المكتوبة على الشمال: "خادم الشريعة السلطان أحمد". والزخارف الحرفية تعود إلى القرن الثامن عشر الميلادي.

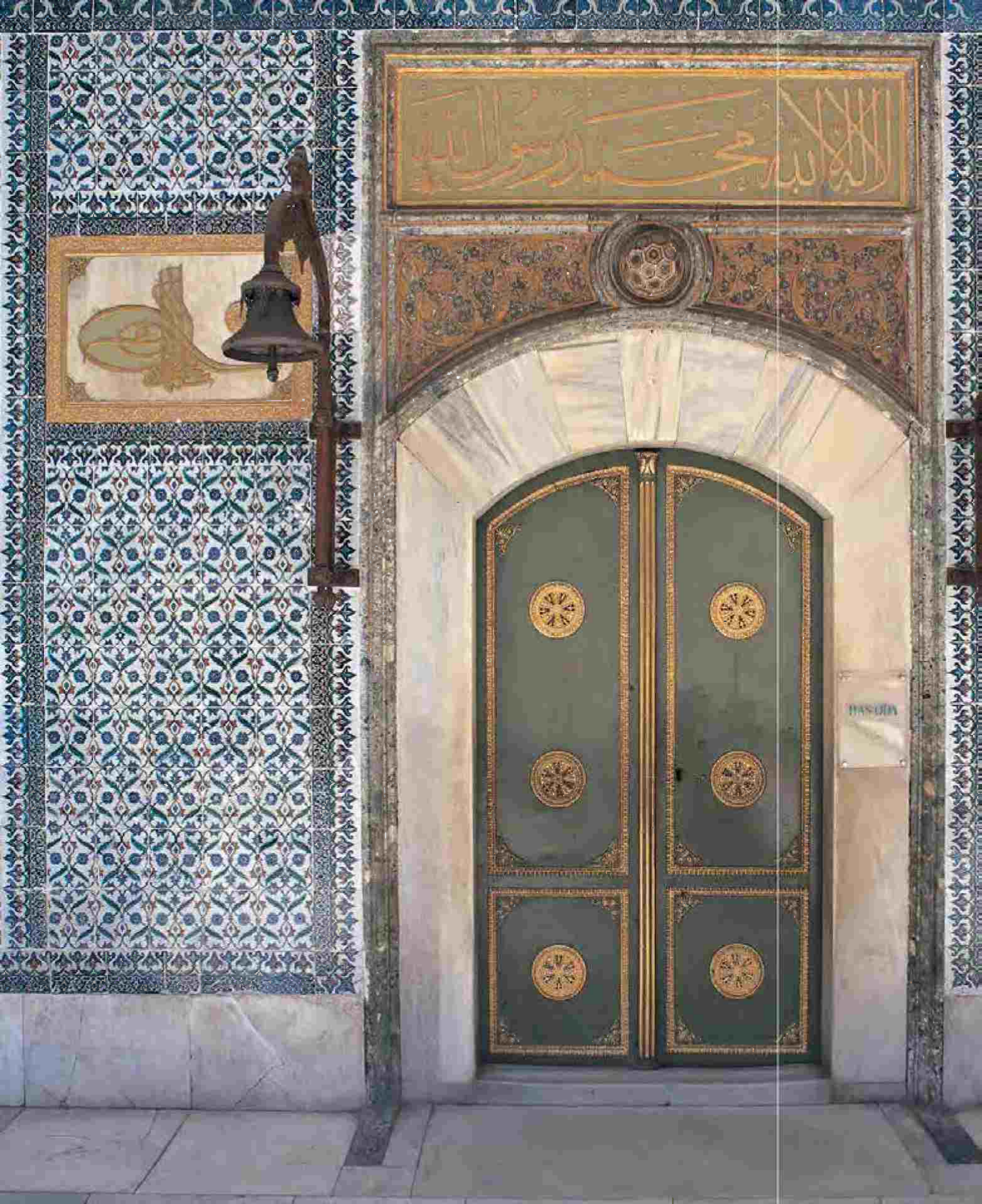
لا إله إلا الله محمد رسول الله

وعلى أثر ذلك أمر السلطان سليم بإعداد العدة، وانطلق بالجيش العثماني ناحية مصر، ومن ثَم دخلت مصر والحجاز تحت حكم العثمانيين، وسُجّل ذلك رسميا يوم الجمعة ٢٠ شباط/فبراير عام ١٥١٧م في جامع الملك المؤيد بالقاهرة، حيث أُلقيت الخطبة باسم السلطان سليم خان. والأمر العجيب الذي حصل في ذلك اليوم أن خطيب الجمعة لما ذكر اسم الخليفة الجديد ووصفه "بحاكم الحرمين الشريفين" قاطعه السلطان قائلا "حاشا حاشا! أنا لست حاكم الحرمين، بل خادم الحرمين الشريفين". وبعض الروايات تقول بأن هذه الحادثة لم تكن في القاهرة بل في حلب الشهباء في الجامع الكبير أو في الشام في جامع الملك الظاهر.

وجدير بالذكر أن السلطان سليم الأول لم يستلم إدارة حرم الله مكة، وحرم رسول الله المدينة عنوة، بل لما التحقت مصر بالدولة العثمانية كان أمير مكة آنذاك الشريف بركات، فبعث بآثار رسول الله ﷺ والأمانات المباركة ومفاتيح مكة المكرمة والمدينة المنورة مع نجله أبي نُمَي إلى السلطان سليم ليعلن له الولاء.

ولما وصل أبو نُمي إلى القاهرة في ٣ تموز/يوليو ١٥١٧ م يوم الجمعة استُقبل باحتفال رسمي، وأكرمه السلطان إكراما بالغا وأنزله منـــزلا حسنا، كما ترك شريف مكة في منصبه، وأهداه قفطانا ثمينا اعترافا بفضله ومكانته. ومنذ ذلك اليوم أصبحت الحجاز من أعظم ولايات الدولة العثمانية.

وحري بالذكر أن العَلَم العثماني لم يرفع في مكة المكرمة والمدينة المنورة قرونا طويلة إجلالا للكعبة المعظمة ولسيدنا محمد رسول الله ﷺ نبي الرحمة. ولكن بعد عصور وفي عهد السلطان عبد العزيز ولأسباب دبلوماسية تم رفع العلم العثماني في المدينة المنورة، وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني في مكة المكرمة؛ ولكن أبقيت الحجاز تحت إدارة أمراء من أهل بيت الرسول ﷺ كما كانت سابقا، إلا أن تعيين أمراء مكة والمدينة كان يتم في عاصمة الخلافة إسطنبول. وكان السلطان يرسل إلى الأمراء مساعدا من إسطنبول يدعى بـــ "المحافظ" وليس " الوالي" احتراما لمكانة الحرمين الشريفين.

ولما عاد السلطان سليم من مصر، أتى بالمقتنيات النبوية الشريفة والأمانات المباركة الموجودة في خزائن المماليك والعباسيين وأمراء الحجاز إلى إسطنبول، ووضعها في قصر طوب قابي. وينبغي التنبيه إلى أن الوثائق التي تمدنا بالمعلومات القاطعة عن كيفية اجتماع الأمانات المقدسة في صورتها الحالية في قصر طوب قابي ليست بالقدر الكافي.

يقول الرحالة العثماني المشهور "أوليا جلبي" في كتابه المعروف بـــ "أوليا جلبي سياحت نامه سي" (رحلات أوليا جلبي) حول هذا الموضوع:

"ذهب السلطان قانصو الغوري إلى الإسكندرية، وهيأ في المرفأ سفينة وضع فيها خزينته مع الأمانات المقدسة التي تتكون من ٥٠ قطعة لينطلق بها إلى شمال أفريقيا حسب اتفاق تم بينه وبين السلطان يعقوب في حال انهزامه أمام السلطان سليم، ولكنه قتل أثناء المعركة. والواقع أن السلطان سليم كان قد حاصر الإسكندرية بسبعمائة قطعة بحرية واستولى على سفينة السلطان قانصو الغوري بما فيها قبل بدء الحرب". وقد أحصى أوليا جلبي أسماء الأمانات المباركة التي كانت في السفينة

لواء السلطان سليم الأول. ◀
طوب لابي، رقم: ٨٢٤/١

والتي نسبت إلى سيدنا رسول الله ﷺ وهي: اللواء الشريف، رباعيته (ﷺ) الشريفة، خصلة من لحيته المباركة، البردة الشريفة، العلم الأحمر، إبريق للوضوء من الحصير مرقت الداخل، مسبحة من عود الصنوبر، نعلان من شحر البَقَّس، عصا من الخيزران، ثوب مطرز، سيف أسود، نطاق، غطاء، عمامة، طاقية بيضاء مطرزة.

ونقل المؤرخ التركي أحمد راسم في كتابه "التاريخ العثماني" أنه لما فتح السلطان سليم الأول مصر كان الخليفة العباسي المتوكل مقيما فيها. فدعاه السلطان إلى عاصمة الدولة العثمانية، ولما وصل إلى إسطنبول سلّم الخليفة المتوكل منصب الخلافة إلى السلطان سليم. وعقب ذلك أرسل أمير مكة الشريف أبو نُمي بن بركات الأمانات المقدسة الموجودة في مكة المكرمة إلى إسطنبول مقر الخلافة الجديد. وقد سجل أحمد راسم قائمة مفصلة للأمانات المباركة التي جاءت مع أبي نمي وهي: البردة النبوية الشريفة، الرباعية الشريفة، نعل السعادة، مقبض سيفه عليه الصلاة والسلام، قوسه ﷺ، اللواء الشريف، قدّر إبراهيم عليه السلام، سيف داوود عليه السلام، ميزاب الكعبة الذهبي، سيوف بعض الصحابة الكرام والخلفاء الراشدين، مفتاح الكعبة المعظمة، عمامة سيدنا يوسف عليه السلام، مصراع باب التوبة، عمامة أويس القرني، ومصحف سيدنا عثمان ﷺ الذي كان يقرأه أثناء استشهاده وأشياء أخرى.

والواقع أن مصادر ذلك العهد لم تذكر أن السلطان سليم قد تسلّم الخلافة من العباسيين باحتفال رسمي، والحديث حول هذا الأمر بدأ فيما بعد. ومعروف أن السلطان سليم الذي تولى إمارة العالم الإسلامي وخدمة الحرمين الشريفين يومئذ، ما كان يحب التباهي بالألقاب ولا التفاخر بالمظاهر. كذلك لم يشأ أن يُنظَر إلى حفظه للأمانات الشريفة كدليل على الخلافة أو رفعة المقام، بل تعبيرا عن حرصه الشديد وحبه الفائق لآثار الرسول ﷺ. ومن ثم جعلها جزءاً من حياته وأمر بوضعها في قصر طوب قابي في الجناح الذي يعيش فيه حفظا لها، وليكون أسوة حسنة لمن بعده من السلاطين في العناية بها على مر العصور والأزمان. وبعد عودته من مصر تجمعت جماهير غفيرة في الضفة الأوروبية من إسطنبول لاستقبال السلطان المظفر، فلما علم بذلك انتظر حلول الظلام، وعبر إلى الضفة الأخرى في وقت متأخر من الليل على متن زورق صغير، ودخل قصر طوب قابي سراً. أليس في هذا التصرف دلالة واضحة على تواضعه وبعده عن التفاخر والتباهي بمظاهر الحكم والسلطان؟!

وفي كتاب "كنه الأخبار" للمؤرخ الشهير في القرن السادس عشر مصطفى علي الكليبولي، لم يُذكَرْ إلا الإتيان باللواء الشريف من الشام إلى إسطنبول عام ١٥٩٤ م ووضْعُه في "الحجرة الخاصة" وعرضُه على الزوار، ولم يذكر أي معلومات إضافية عن بقية الأمانات.

ونقل مؤلف "زبدة التواريخ" في أوائل القرن السابع عشر أن الأمانات المقدسة الموجودة في "الحجرة الخاصة" هي كما يلي: اللواء الشريف، وبردة السعادة، وسيوفه ﷺ، وقوسه وسهامه، وسيف سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ وسجادته، وسيف سيدنا عمر ﷺ وسهمه، وسيف سيدنا عثمان ﷺ، وسيوف ساداتنا معاذ بن جبل، والزبير بن العوام، وخالد بن الوليد، وعمار بن ياسر، وشرحبيل بن حَسَنة، وأبو طلحة ﷺ أجمعين.

وفي كتاب "القوانين العثمانية ونظام الآستانة" يذكر أن جناح السلطان الخاص في القرن التاسع عشر كان يتكون من أربع حجرات، واحدة منها ذات قبة ومدفئة ويوجد فيها كرسي العرش وبردة السعادة ورباعيته الشريفة ﷺ وغير ذلك من الأشياء المباركة.

وقد استمر توارد الآثار النبوية الشريفة والمقتنيات المباركة على قصر طوب قابي وبطرق مختلفة ابتداء من عهد السلطان سليم الأول وحتى أوائل القرن العشرين، ولم يفتأ السلاطين العثمانيون يجمعون عندهم المقتنيات الخاصة بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وغيرها مما يخص كبار رجالات الإسلام حتى نهاية الدولة العثمانية.

كما يوجد الآن في قصر طوب قابي بعض المقتنيات المباركة التي أتت من المدينة المنورة عقب الحرب العالمية الأولى، وذلك أن محافظ المدينة المنورة "فخر الدين باشا" لما خاف الضياع على الأمانات المباركة والمقتنيات النفيسة الموجودة في الروضة المطهرة والتي كانت ترسل برفقة المحمل النبوي الشريف على مر العصور من العاصمة إسطنبول... لما خاف عليها الضياع بعث بها إلى إسطنبول في موكب كبير. وهي الآن في خزانة متحف قصر طوب قابي وفي أقسامه الأخرى.

وحاليا يوجد في متحف قصر طوب قابي في جناح الأمانات المقدسة ٦٠٥ قطع كما هو مسجل في قائمة المقتنيات الرسمية للمتحف. كذلك توجد بعض المقتنيات في أقسام أخرى مثل قسم الخزانة السلطانية وقسم السلاح والمكتبة وتعد ضمن الأمانات المباركة أيضا.

ويمكننا أن نذكر أسماء بعض الأمانات المباركة في متحف قصر طوب قابي في جناح الأمانات المقدسة فيما يلي:

البردة النبوية الشريفة، اللواء الشريف، نعل السعادة، القدح الشريف، اللحية الشريفة، سيوفه ﷺ، قوسه، رباعيته التي كسرت في معركة أحد، ترابُ تيمُّمه، الخاتم الشريف وغيرها من الودائع العائدة إلى رسول الله ﷺ، إضافة إلى قدر ينسب إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام، وعمامة تنسب إلى سيدنا يوسف عليه السلام، وعصا منسوبة إلى سيدنا موسى عليه السلام، وسيف ينسب إلى سيدنا داوود عليه السلام، وشعرة من لحية سيدنا أبي بكر ﷺ، والمصحف الذي كان يقرأ فيه سيدنا عثمان ﷺ أثناء استشهاده، وسيوف بعض الصحابة، وقميص السيدة فاطمة الزهراء ونقابها، وبردة سيدنا الحسين وقطعة من بردته، وعمامته، وبردة الإمام الأعظم أبي حنيفة، وقلنسوة أويس القرني ﷺ، وتاج الشيخ عبد القادر الجيلاني والإمام الشعراني، وأواني مولانا جلال الدين الرومي، وأشياء أخرى عائدة للأنبياء وأقارب سيدنا رسول الله ﷺ وكبار رجالات الاسلام، والميازيب الذهبية للكعبة المعظمة، وكذلك المحافظ الفضية والذهبية للحجرالأسود، ومصراع باب التوبة، وأقفال الكعبة ومفاتيحها، وستائرها، وبعض القناديل والمباخر والمعطرات التي استعملت في الكعبة المعظمة والمسجد النبوي، وما استخدم في ترميم الكعبة من خشب، وحجر، وزجاج، وخزف وقطع أخرى؛ إضافة إلى أكسية قبر النبي ﷺ، وتراب من القبر الشريف، وغبار من الضريح المبارك الذي يسمى بجوهر السعادة وصناديق وأدراج وستائر وصرر وأشياء أخرى استخدمت في نقل الودائع المباركة المذكورة سواء من الكعبة المعظمة أو المسجد النبوي أو مصر.

إضافة إلى أغماد السيوف، ورحلات للقرآن الكريم، ومكانس كانت تستعمل في خدمة جناح الأمانات المقدسة وجواريف وشموع وخشب من شجر العود وصور خطية لخطاطين مشهورين أو للسلاطين، والحلية الشريفة، وسجادات، ومسابيح وطاسات من النحاس والفضة وقناديل وقلانس لبعض شيوخ الطرق الصوفية، وزجاجات لماء زمزم، وكذلك مصاحف مخطوطة ونُسَخ لسورة الأنعام، وقصص الأنبياء، وكتب فقه وتفسير ودلائل الخيرات وغيرها من المخطوطات التي نقلت إلى مكتبة البردة النبوية الشريفة في متحف طوب قابي وتباركت الأيدي التي نقلتها والقلوب التي حفظتها.

وما ذكر أعلاه من الذكريات الطيبة العائدة لسيدنا رسول الله ﷺ سميت بـــ "الأمانات". أما العائدة للأماكن المباركة ولكبار رجالات الاسلام فسميت بـــ "التبركات"، وأطلق على مجموعها اسم "الأمانات المقدسة" أو "الامانات المباركة".

لما بدأ السلاطين العثمانيون بجمع الأمانات المباركة والحفاظ عليها وضعوها في أماكن خاصة من قصر الخلافة قصر طوب قابي مثل خزانة القصر، وخزانة السلاحدار، وقصر رَوان، والحرم الخاص، ولا سيما الدائرة التي تعرف بـــ "الحجرة الخاصة" وهي الجناح الخاص بالسلطان. وبعد عام ١٨٠٨ م أمر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨- ١٨٣٩ م) بتخصيص "الحجرة الخاصة" التي كانت الجناح الخاص بالسلطان منذ محمد الفاتح للآثار النبوية والمقتنيات المباركة الأخرى حصريا، ومن ثم عرفت بعد ذلك بـــ "دائرة البردة الشريفة" أو "جناح الأمانات المقدسة".

وبعد انهيار الدولة العثمانية والإعلان عن جمهورية تركيا تم تحويل قصر طوب قابي إلى متحف في ٣ نيسان/أبريل عام ١٩٢٤؛ ولم يسمح لأحد بأن يتعرض إلى الأمانات المباركة بالأذى، بل تم الحفاظ على "دائرة البردة الشريفة" أو "جناح الأمانات المقدسة" وفقا للتقاليد المتعارف عليها سابقا. وكانت مفاتيح جناح الأمانات المقدسة في تلك الفترة موكولة إلى راسم أفندي كبير موظفي قسم الأمانات المقدسة في أواخر العهد العثماني. وبعد ثلاث سنوات، عندما رأى راسم أفندي أن نظام السلطنة قد انمحى وأن إدارة متحف القصر مخلصة في الحفاظ على المقتنيات المباركة وتعنى بشؤون القصر بصورة جيدة قرر أن يسلم المفاتيح إلى "تحسين أوز" مدير المتحف آنذاك. الأمر الذي أتاح الفرصة لفتح المحافظ التي كانت مقفولة منذ سنوات، وإخراج ما فيها من الصرر المكدس بعضها فوق بعض، وفتحها واحدة بعد الأخرى، والكشف عن الآثار المباركة التي لم يكن يتمكن الخدام من تنظيفها إلا من الخارج، إضافة إلى إحصائها وتسجيلها كاملة في قوائم الجرد العائدة لمتحف قصر طوب قابي؛ كما سجلت المعلومات التي عثر عليها مكتوبة فوق المقتنيات وبطاقات الآثار وصنفت في جداول خاصة. وأخيرا ولأول مرة في ٣١ أغسطس ١٩٦٢ تم فتح جناح الأمانات المقدسة للزوار في إطار المفهوم المعاصر للمتاحف الحديثة بعد أن كان مغلقا لخصوصية ما يتضمنه من آثار كريمة وذكريات طيبة.

يقول المرحوم "تحسين أوز" في كتابه "الأمانات المقدسة" الذي نشر عام ١٩٥٣:

"رغم مرور مئات السنين حافظت الأمانات المقدسة على وجودها وأصالتها؛ وما ذلك إلا لعمق

لوحة خطية كتبها السلطان محمود الثاني بخط يده، وهي الآية التي تكتب غالبا على محاريب المساجد. طوب قابي، رقم: ٢٣٦/٢١

إيمان أهل هذا الدين، حتى أصبحت كنزاً حقيقياً، جمعته الأيدي الطاهرة والقلوب النقية، قطعة بعد قطعة. ولم تُجمع تلك الأمانات المباركة لتكوّن رابطة دينية ومنظومة إيمانية بين أبناء الأمة الإسلامية فحسب، بل لأنها تحتوي على ذكريات جميلة يصعب على الزمان محو تأثيرها من العقول والقلوب. فهي شواهد ووثائق على تاريخنا المجيد وكنز ثمين في الفن الإسلامي؛ ومن ثم جدير بها أن تنال الأهمية العظمى على المستوى العالمي. ولذلك أولاها سلفنا الصالح من الشعوب الإسلامية والشعب التركي اهتماما خاصا، ووفروها أعظم توفير حتى وصلت إلى عصرنا، وستبقى مكانتها الرفيعة وقيمتها العالية في القلوب إلى يوم الخلود".

هذا وقد تم الاهتمام بالأمانات المباركة منذ تأسيس الجمهورية التركية حتى اليوم أشد الاهتمام كما فعل أجدادنا في التاريخ، وتم تسجيل كل ما يتعلق بها في قوائم الجرد والمقتنيات التابعة لمتحف قصر طوب قابي. وحتى الأشياء التي استعملت يوما ما في "الحجرة الخاصة" لأغراض مختلفة مثل المكانس، والرفوش، والشموع، والشمعدانات، والمعاطر، والمباخر، والساعات، ورحلات القرآن الكريم، والوسائد وغيرها، وضع عليها أرقام وسجلت في سجلات المتحف لكي تبقى إلى يومنا هذا وإلى الأجيال القادمة.

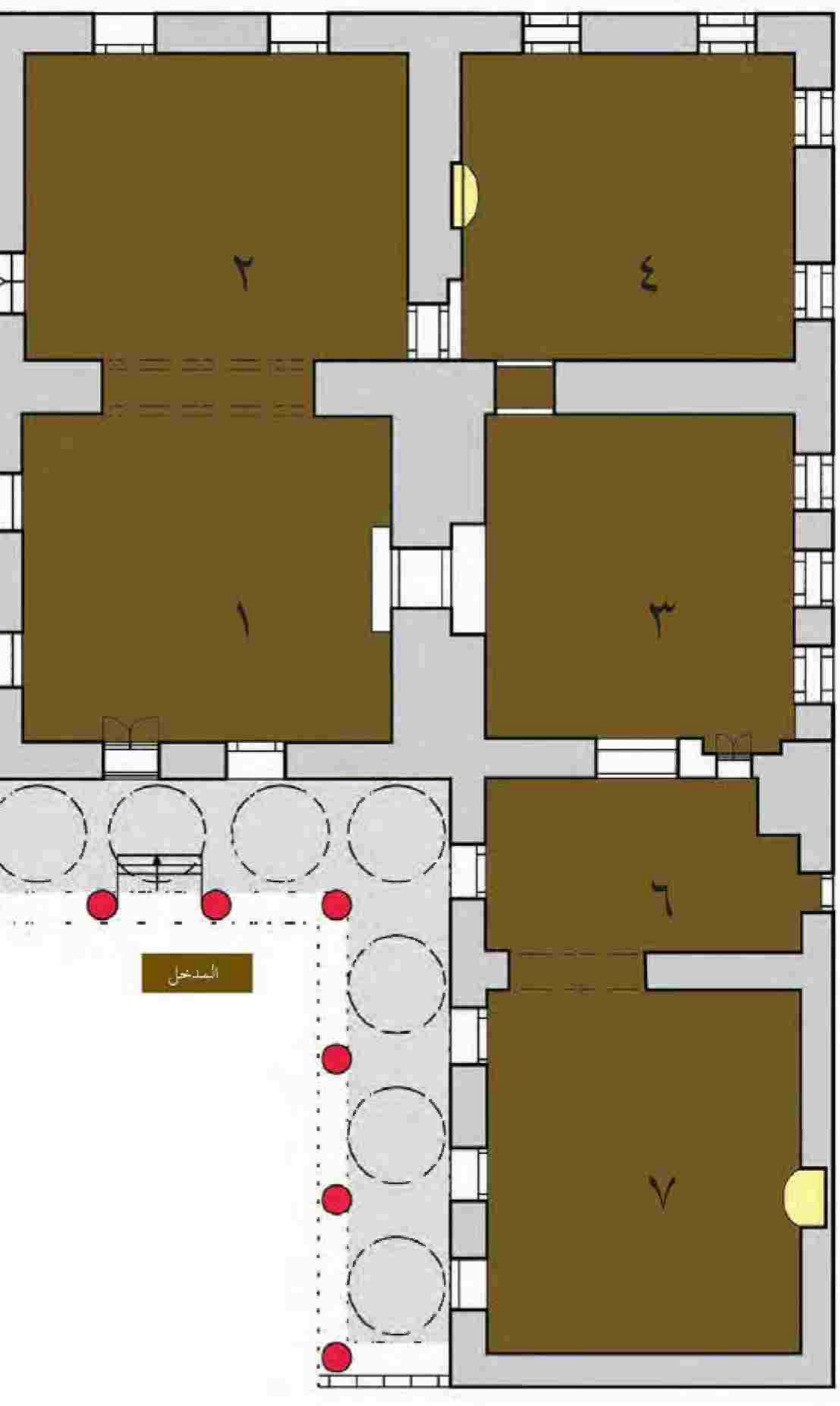
٢
٤
١
٣
٦
٧
المدخل

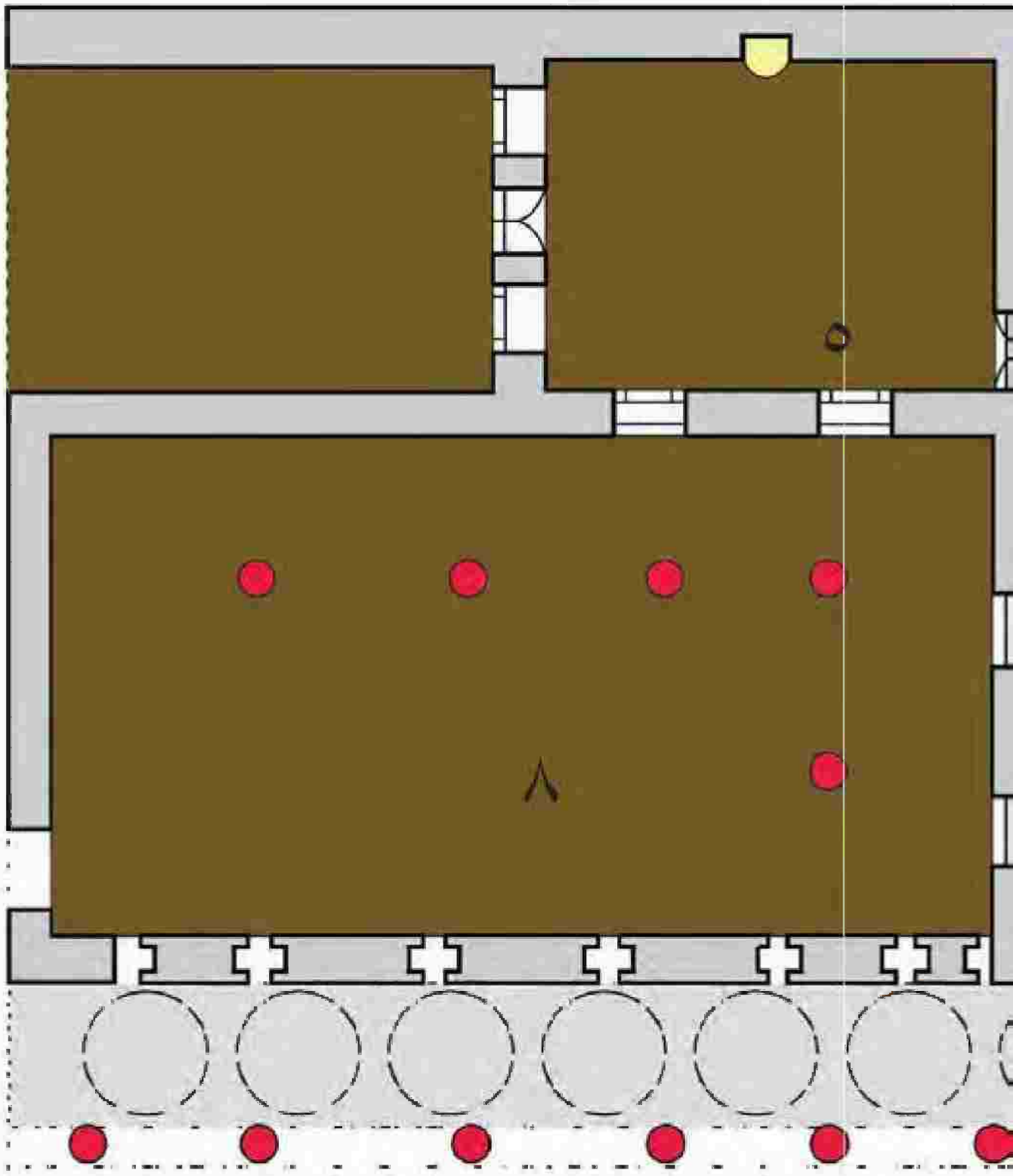

مخطط جناح الأمانات المقدسة.

الحجرة الخاصة أنشئت في عهد السلطان محمد الفاتح لتكون دائرة السلطان الخاصة.

(١-٢) الحجرتان اللتان تقعان في المدخل معروفتان بـ "قاعة الدفوة".

(٣) الحجرة الأولى التي تقع على يمين المدخل هي "قاعة العرض" التي يستقبل فيها الضيوف.

(٤) الحجرة التي تقع في الزاوية هي الحجرة الخاصة التي يوجد فيها بردة السعادة وكرسي العرش.

(٥) على شمال قاعة الدفوة توجد حجرة مناديل البردة (دستمال).

(٦-٧) يمكن العبور من قاعة العرض إلى خزانة الحسلاحدار.

(٨) في القرن التاسع عشر أغلق قسم الأروقة الذي كان أمام السبيت، وأنشئ سبيل جديد لخدام الأمانات المقدسة.